

س. ا. ع

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

الحكيم « ويسميه هو « شارع ماري » . . . ويكون اسم الآخر « شارع كتنز » فيسميه « شارع الطويلة » . . . ودرّب اسمه « درب الملاح » واسمه عنده « درب المليحة » . . . وهلم جراً ومسخاً . وإذا أراد صاحبنا هذا أن يسخر من الشيطان دخل المسجد فصلّى ، وإذا أراد الشيطان أن يسخر منه دحرجه في الشوارع . . .

وافيت هؤلاء الثلاثة مجتمعين يتدارسون مقالة « تربية لؤلؤية »^(١) يناقشونها بثلاثة عقول ، ويفتشونها بست عيون ؛ فأجموا على أن المرأة السافرة التي نبذت « حجاب طبيعتها » على ما بينت في تلك المقالة — إن هي إلا امرأة مجهولة عند طالبي الزواج بقدر ما بالنت أن تكون معروفة ، وأنها ابتعدت من حقيقتها الصحيحة قدر ما اقتربت من خيالها الفاسد ، وأتقنت التلظ ليصدّقها فيه الرجل فلم يكذبها فيه إلا الرجل ، وجعلت أحسن معانيها ما ظهرت به فارغة من أحسن معانيها . . . وأردت أن أعرف كيف تنتصف الطبيعة من الرجل العزّاب للمرأة التي أهملها أو تركها مهمل . . . وأين تبلغ ضرباتها في عيشة ، وكيف يكون أثرها في نفسه ، وكيف تكون المرأة في خاطئة الأعين ؛ فتسرحت مع أصحابنا في الكلام فتأبى بدفن ، وأزلت حذارهم الذي يحذرون حتى أفضروا إلى بفسلفة عقولهم وصدورهم في هذه المعاني .

قال « س » : حسي والله من الآلام وآلام معها — شعوري بحرماني المرأة ؛ فهو بلاء معنى القراز ، وسلبني السكينة ؛ وكأنه شعور يمثل الوحدة التي يماقب السجين بها مصروفاً عن الحياة معروفة عنه الحياة ؛ تجمله جدران سجنه بمعنى لو كان حجراً فيها فينجز من عذاب إنسانيته الذليلة المجرمة المحلّي بينها وبينه تويسمه مما يكره ؛ شعور بالوحدة والعزلة حتى مع الناس وبين الأهل ، فمافي إلا عواطف خرس لا تستجيب لأحد ولا يجاوبها أحد في « ذلك المعنى » .

وتعام الذلة أن يجد العزّاب نفسه أبداً مكربها على الحديث عن آلامه بكل من يخالطه أو يجلس إليه ، كأنه يحمل مصيبة لا ينفس منها إلا كلامه عنها . وهذا هو السرّ في أنك

(١) نشرت بالمعد ٦١ من الرسالة .

هؤلاء ثلاثة من الأدباء تجمعهم صفة العزوبة ، ومحبون المرأة حباً خائفاً يقدم رجالاً ويؤخر أخرى ؛ فلا يقبل إلا أدير ، ولا يعزم إلا انحلّ عزمه . بلنوا الرجولة وكان ليست فيهم ؛ وتحرّ بهم الحياة مروراً بالأمثال النصوبة ، لاهذه قد ولدها ولا أولئك ؛ وما رحوها يجاهدون ليحتملوا معاني وجودهم ، لا ليطلبوا سعادة وجودهم ، ويخصّرقون في شعوة الحياة بالنهار على الليل وبالليل على النهار ، يحاولون أن يجدوا كالناس أياً وليالي ، إذ لا يعرفون لأنفسهم من العزوبة إلا نهاراً واحداً نصفه أسود مقفر مظلم .

فأما « س » فرجل « كشيخ المسجد » يكاد يرى حصيد المسجد حيث وطئت قدماء من الأرض . . . ذو دين وتقوى ما يزال بهما يتقبض وينكمن ويتأيل حتى يرجع طفلاً في الثلاثين من عمره . . . وهو حار بائ لا يتجه لشيء من أمر المرأة وقد فقد منها ما يحل وما يحرم ، ولا جراءة لنفسه عليه فلا جراءة له على التورقات ، ولا يزين له الشيطان ورطة منها إلا امسّس منه ، فانه ثلاثة أبواب مفتوحة للهرب ؛ إذ يخشى الله ، ويتوق على نفسه ، ويستحي من ضميره .

وأما « ا » فرجل معزّاب ، ولكنه كلاسفة امتلأت حتى ليس فيها خلاء لقطرة ، ثم عصرت حتى ليس فيها بلال من قطرة ؛ وقد بلغ مافي نفسه وقضى نهيمته حتى اشتق مما أراد ؛ ثم قلب الثوب . . . فإذا له داخل ناعمة من الخز والديباج ، وإذا هو « الرجل الصالح » العفيف الدخلة ما تنطلق له نفس إلى ماتم ، ولا يعرف الشيطان كيف يتسبب لصالحه ومراجته الود .

وأما « ع » فهو كالأمعرج ؛ إذا مشى إلى الخير أو الشر مشى بطيئاً برجيل واحدة ، ولكنه يمضى . . . وهو « ملك الشوارع » لا يزال فيها مقبلاً مديراً طرفاً من النهار وزلفاً من الليل ؛ فإذا لم يكن في الشارع نساء ظنّ الشارع قد هرب من المدينة وخرج من طاعته . ولهذا الشوارع أسماء غيرة أسمائها التي يتعارفها الناس ويستدلون بها . فقد يكون اسم الشارع مثلاً « على

لقد تَوَزَّعتُ المرأةُ على فهو متفرق عليها وهي متفرقة فيه ،
لا أستطيع والله أن أتصورها كاملة ، بل هي في خيالي أجزاء ،
لا يجمعها كلُّ ؛ هي ابتسامة ، هي نظرة ، هي ضحكة ، هي أغنية ،
هي جسم ، هي شيء هي هي هي . أكل تلك المعاني هي المرأة التي
يعرفها الناس ، أم أنا لي امرأةٌ وحدي ؟

واني على ذلك لأتخوفُ الرواجِ وأحمَاهُ ؛ إذ أرى الشارعَ
قد فضح النساءَ وكشَفهنَّ ؛ فما يريني منهنَّ إلا امرأةٌ تُزهي
بشبابها وصنعة جملها ، أو امرأةٌ كالمهاربة من فضائلها ؛ والبيت
إنما يطلب الزوجة الفاضلة الصنَّاع ، تخطيط ثوبها بيدها فتبأى
بصنعة قبل أن تبأى بلبسه ، وترهى بأثر وجهها في ، لا بأثر
الساحيق في وجهها . وإن مكابدة الغفَّة ، ومصارعة الشيطان ،
وتوهج القلب بناره الحامية ، وإمام الطيرة الجنونية بالمقل -
كل ذلك ومثله منه أهون من مكابدة زوجة فاسدة العلم أو فاسدة
الجهل ، أُنبتلي منها في صديق العمر بعدو العمر .

إن أثر الشارع في المرأة هو سوء الظن بها ، فهي تحسب
نفسها معلنة في أوثنها وجمالها وزينتها ، ونحن نراها معلنة فيه
سوء أدب وفساد خلق وانحطاط غريزة . ومن كان فاسقاً أساء
الظن بكل الفتيات ، ووجد السبيل من واحدة إلى قول يقوله
في الأخرى ؛ ومن كان عفيفاً سمع من الفاسق فوجد من ذلك
متعلقاً يمتلئ به ، وقياساً يقيس عليه ؛ والفتنة لاتصيب الذين
ظلموا خاصة .

آه لو استطعت أن أوقظ امرأة من نساء أحملي . . . !

وقال « ا » : لقد كانت معاني المرأة في ذهني صوراً بديمة
من الشعر تستخفني إليها الماطفة ، ولا يزال منها في قلبي لكل
يوم نازية تنزو . وكانت المرأة بذلك حديث أحملي ونجى
وساومي ، وكنت عفيف البنطلون^(١) ؛ ولكن النساء أيقظني
من الحلم ، وجفنتني فيه بالحقيقة ، ووضعن يدي على ماتحت
ملبس الحية . ولو حدثتك بجملة أخبارهن ، وما مارست منهن
لتكبرهت وتسخطت ، ولأيقنت أن كلمة تحرير المرأة
إنما كانت خطأ مطبعياً ، وصوابها : تحرير المرأة . . . نفؤلاء

(١) يقول الرب في الكفاية عن الغفة : هو عفيف الأزار ، وترجمتها
في عصرنا ما رأيت .

لا تجد عزماً إلا عرفته ثوراً لا يزال في لسانه مقالة عن معنى
أو رجل أو امرأة ، وأصبته كالذي لا يطير عن وضع الإليقع
على موضع .

ومع جهد الحرمان جهد شر منه في المقاومة وكف النفس ،
فذلك تسب يهلك به الآدى إذ لا يدعه يتقار على حالة - من
الضجر - فيما تنازعه الطبيعة إليه ، وهو كالزراع في أعصابه
يحبها تشد لتقطع ، ودائماً تشد لتقطع .

وقد رهقني من ذلك النفسى النسوى ما عيل به صبرى
وضعف له احتمالي ؛ فما أراى يوماً على جام من النفس ، ولا ارتياح
من الطبع ؛ وكيف وفي القلب مادة هو ، وفي النفس علة
اتقباضها ، وفي الفكر أسباب مشغلتها ؟ وقد أوقدت سورة
الشباب نارها على الدم ، تلتعج في الأحشاء ؛ وتطير في الرأس ،
وتصبغ الدنيا بلون دخانها ، وفي كل يوم يتخلف منها رماذ هو
هذا السواد الذى ران على قلبي .

وما حال رجل عذابه أنه رجل ، وذله أنه رجل ؟ يلبس
ثيابه الانسانية على مثل الوحش في سلسله وأغلاله ، ويحمل عقلاً
تسبه الغريزة كل يوم ، وتراه من العقول الزبوف لا أثر
للفضيلة فيه ؛ إذ هو مجنون بالمرأة جنون الفكرة الثابتة ، لما
يخلو إلى نفسه ساعة أو بعض ساعة إلا أخذته الغريزة مجترحاً
جريعة فكر . . .

وفي دون هذا ينكر المرء عقله ؛ وأى عقل تراه في رجل
عزب يقع في خياله أنه متزوج ، وأنه يأوى إلى « فلانة » وأنها
قائمة على إصلاح شأنه ونظام بيته ، وأنه من أجلها كان عزوقاً
عن الفحشاء بعيداً من المنكر ، وفاء لها ، وحفظاً لمهد الله فيها
وقد دلته بفنونها التي يتدعها فكره ؛ وهي ساعة تؤاكله على
الحلوان ، وساعة تضاحكه ، وصره تعابه ، ونارة تجافيه ، وفي
كل ذلك هو ناعم بها ، يحدتها في نفسه ، ويسمر معها ،
ويتصنع لها ويتصنع له ؛ ويماتها أحياناً في رقة ، وأحياناً في
جفاء وغلظة ؛ وقد ضربها ذات مرة . . . ؟

ألا إن المرأة عندي هي هذا الجنون الذى يرجع بي إلى عشرة
آلاف سنة من تاريخ الدنيا ، فيرى بي في كهف أو غابة رجلاً
عازباً متوحشاً متأبداً ليس من الحيوان ولا من الانس ، دنياه
أحجار وأشجار ، وهو حجر له ثوب الشجر .

في تغيير نظرتهم إلى النساء ، وسرياً في إفساد اعتقادهم ، وفي تقض احترامهم ، فأقبلوا بالجسم على المرأة وأعرضوا عنها بالقلب ، وأخذوها بمعنى الأثوثة وتركوها بمعنى الأثومة ؛ ومن هذا قل طلاب الزواج ، وكثر زواد الخنا .

ولقد جاءت إلى مصر كاتبة إنجليزية وأقامت أشهراً تخالط النساء التحجيات وتدرس معاني الحجاب ، فلما رجعت إلى بلادها كتبت مقالاً عنوانه «سؤال أحمله من الشرق إلى المرأة الغربية» قالت في آخره : «إذا كانت هذه الحرية التي كتبناها أخيراً ، وهذا التنافس الجنسي ، وتجريد الجنسين من الحجب المشوِّفة الباعثة التي أقامتها الطبيعة بينهما — إذا كان هذا سيصبح كل أثره أن يتولى الرجال عن النساء ، وأن يزول من القلوب كل ما يحرك فيها أوتار الحب الزوجي فما الذي نكون قد ربناه ؟ لقد والله تضطرننا هذه الحال إلى تغيير خططنا ، بل قد نستغرب طوعاً وراء الحجاب الشرق ، لتعلم من جديد فن الحب الحقيقي .»

وقال «ع» : لت فيلسوفاً ، ولكن في يدي حقائق من علم الحياة لاتأني الفلسفة بعثها ، وكتابي الذي أقرأ فيه هو الشارع . فأعلم أن العُزَّاب من الرجال يتعلم بعضهم من بعض ، وهم كاللصوص لا يجتمع هؤلاء ولا هؤلاء إلا على رذيلة أو جريمة . وحياة اللص معناها وجود السرقة ، وحياة العزب معناها وجود البغاء والفسق .

ومن حكم الطبيعة على الجنسين أن الفاسق يباهي باظهار فسقه قدما تخاف الفاسقة من ظهور أمرها ؛ وهذه إشارة من الطبيعة إلى أن المرأة مسكينة مظلومة . لما ابتذل الحجاب ، ولا استهتاك النساء إلا جواب على انتشار الزوينة في الرجال ، وكيف يتحول الماء ثلجاً لولا الضغط نازلاً فنازلاً إلى ما دون الصفر ؟ فهذا الثلج ماءً يمتد من تحوله وانقلابه بمنطبيسي قاهر له قوة الضرورة اللجئة ، وكذلك المرأة الذالة أو الطامعة أو التبنلة أو التمتكة — فأصفاهن إلا تؤكد لأعدائهن . وكان على الحكومة أن تضرب العزوبة ضربة قانون صارم ، فالعزب وإن كان رجلاً حراً في نفسه ، ولكن رجولته تفرض للأثوثة حقها فيه ، فبني جحد هذا الحق واستكبر عليه رجع حاله مع المرأة إلى مثل شأن القريم مع غريمه ؛ ليس للفصل فيه إلا الدولة وأحكامها وقوتها التنفيذية . ولذا أطلقت الحرية للرجال فصاروا كلهم أو أكثرهم أعزباباً

النساء أو أكثرهن — لم يذرن الحجاب إلا لتخرج واحدة مما تجهل إلى ما تريد أن تعرف ، وتخرج الأخرى مما تعرف إلى أكثر مما تعرفه ، وتخرج بعضهن من إنسانة إلى بهيمة

لقد عرفتُ فبين عرفت منهن الخفيفة الطياشة ، والحقاء المتساقطة ، والفاحشة ذات الريبة ؛ وكل أولئك كان تجريرهن أي تجريرهن — تقليداً للمرأة الأوربية ؛ تهاالكسن على رذائلها دون فضائلها ، واشتد حرصهن على خيالها الروائي دون حقيقتها العلمية ، ومن مصائبنا نحن الشرقيين أننا لاناخذ الرذائل كما هي ، بل نزيد عليها صنمقنا فإذا هي رذائل مضاعفة .

كان الحلم الجميل في الحجاب وحده ، وهو كان يُسمر أنفاسي ويستطير قلبي ، ويرغمني مع ذلك على الاعتقاد أن ههنا علامة التكرم ورمز الأدب وشارة العفة ، وأن هذه المحصنة المخدرة عنبراء أو امرأة لم تلق الحجاب عليها إلا إيداناً بأنها في قانون عاطفة الأثومة لا غيرها ؛ فهي تحت الحجاب لأنه رمز الأمانة لمستقبلها ، ورمز الفصل بين ما يحسن وما لا يحسن ، ولأن وراه صفاء روحها الذي تخشى أن يكدر ، وثبات كيانها الذي تخشى أن يُزعزع .

قال حكيم لأولئك الذين يستميلون النساء بأنواع الخلى وصنوف الزينة والكسوة الحسننة : «يا هؤلاء ، إنكم إنما تطلوهن بحبة الأغنياء لاجبة الأزواج» وأحكم من هذا قول ذلك الرجل الآلهي الصارم عمر بن الخطاب : «إضربوهن بالمرى .» فقد عرف من ألف وثلثمائة سنة أن تجرير المرأة هو تجريرها ، وأنها لا تخرج لصلحة أكثر مما تخرج لاطهار زينتها . فلو مُنمت الثياب الجميلة حبسها طبيعتها في بيتها . فإذا تقول الشوارع لو نطقت ؟ إنما تقول : يا هؤلاء ، إنما تطلوهن معرفة الكثير لا معرفة الواحد . . . 1

لقد والله أنكرت أكثر ما قرأت ، وسمعت من محاسنهن وفضائلهن وحياتهن . ولقد كان الحجاب معني لصعوبة المرأة واعتزازها ، فصار الشارع معني لسهولتها ورخصها ؛ وكان مع تحمسن الصعوبة أو توهمها أخلاق وطباع في الرجل ، فصار مع توهم السهولة أو تحمقها أخلاق وطباع أخرى على العكس من تلك ما زالت تسمى وتحول حتى ألجأت القانون أخيراً أن يترق عن لمس المرأة في الطريق من «الجنحة» إلى «الجنانية» . وتخنث الشبان والرجال ضرورياً من التخثت بهذا الاختلاط وهذا الابتذال ، وتحملت فيهم طابع العيرة ، فكان هذا سريماً

اعظم هارت في حياة روسو:

٢- روسو ومدام دي فرنس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- والحقيقة أن مدام دي فرنس نشت في جان چاك ضرباً غريباً - من السحر والجوى ، لاهو بلحب الجنس الخالص ، ولاهو بلحب البنوى الخالص ، ولاهو بالصدقة الحيمة ، بل كان مزيجاً من ذلك كله ، يقترن بنوع من عبادة الجمال والحر ، وعاطفة عميقة من العرفان وشكر الصنيعة . وسرى أن له الى جانب هذه الناحية الأفلاطونية ناحية أخرى . وعلى أى حال فقد كان لهذا السحر الذى بثته مدام دي فرنس في جان چاك أعظم أثر في تكوين عواطفه وفلسفته في الجمال والحب والمرأة ، وكان مستق خياله ومشاعره في بضعة الأعوام التالية التي اكتمل فيها شبابه ، وتفتحت أمامه عوالم الحياة . وفي ظلال هذه السعادة أقام جان چاك منزلاً مكرماً يقضى أوقات فراغه في القراءة ودرس الموسيقى والأحلام اللذيذة ، والسمر مع مدام دي فرنس . وكان يشعر أن السعادة قد بلغت ذروتها ، وأنها لذلك لن تدوم ، ويرجف فرقا كلما تصور يوم البعاد واقضاء هذا المهدي الأمل .

- وأقام روسو على هذا النحو زهاء عام وبعضه ، ثم رأت مدام دي فرنس أن ترسله الى ليون لقضاء بعض المهام ، فسافر اليها ، ولم ينب سوى أيام قلائل . ولكنه لما عاد الى أنسى لم يجد «أمه» وموئل سعادته ، ولم يستطع أن يعلم شيئاً عن غيابها سوى أنها سافرت الى باريس مع خادما كلود آنيه ، فلم ير سبيلا سوى الانتظار ، وأقام وحده بالنزل يتنهم أخبارها وموعد عودها ، وهو يدرس الموسيقى ويؤلف الأناشيد . وهنا يقص علينا روسو عدة حوادث غرامية تافهة وقعت له خلال هذه الفترة . وكانت معرفته بالموسيقى سبباً في اتصاله ببعض الهواة . ولما طالت غيبة مدام دي فرنس ، سافر الى جنيف ، ثم الى نيوشاتل ، وهناك استقر حيناً يكسب عيشه بتدريس الموسيقى ، ولكن شبح مدام دي فرنس كان يساوره أبداً ، وكان العود اليها أبداً أعز أمانيه ، فلم تمض عليه بضعة أشهر في هذا التجوال حتى عاد الى ساقوا . وكانت مدام دي فرنس ، قد غادرت يومئذ أنسى الى شامبرى

فماذا يكون إلا أن تمنح الدولة ، وتسقط الأمة ، وتتلشى الفضائل ؟ فالعزوبة من هذا جريعة بنفسها ، ولا ينبغي أن تترىص بها الحكومة حتى تتم ، بل يجب اعتبارها باعتبار الجرائم من حيث هي ، ويجب تفسير كلمة «العزب» في اللغة بمثل هذا المعنى : إنها شخصية مذكرة ساخطة متمردة على حقوق مختلفة للمرأة والنسل والأمة والوطن .

وما ساء رأى العزاب في النساء والفتيات إلا من كونهم بطبيعة حياتهم المضطربة لا يعرفون المرأة إلا في أسوأ أحوالها وأقبح صفاتها ، وهم وحدهم جعلوها كذلك .

إن لهم وجوداً محزناً يستمتون فيه ولكنهم يهلكون ويهلكون بهم . هم والله أساندة الدروس السافلة في كل أمة ، وهم والله بناة من الرجال في حكم البنايا من النساء ، يجرؤون جميعاً مجرى واحداً . ومن هي البنى في الأكثر إلا - امرأة فاجرة لازوج لها ؟ ومن هو العزب في الأكثر إلا رجل فاسق لازوجة له ؟ على أن مع المرأة عذر ضعفاً أو حاجتها ، ولكن ما عذر الرجل ؟ ماذا تفيد الدولة أو الأمة من هذا العزب الذى اعتاد فوضى الحياة ، وسيرها على غير نظامها ، وتحققها على أسخف ما فيها من الخيال والحقيقة ؟ وأى عزب يجد الاستقرار أو يتمتع له أسباب الحياة الفاضلة ، وهو قد فقد تلك الروح التي تتم روحه وتفتحها وتمسكها في دائرتها الاجتماعية على واجباتها وحقوقها ، وتجيئه بالأرواح الصغيرة التي تشمره التبعة والسيادة معاً ، وتمتد به وتمتد بها في تاريخ الوطن .

كيف يُعتبر مثل هذا موجوداً اجتماعياً صحيحاً وهو حتى مختل في وجود مستمر ، يقضى الليل هارباً من حياة النهار ، ويقضى النهار نافراً من حياة الليل ؛ فيقضى عمره كله هارباً من الحياة ، وكأنه لا يعيش بروحه كاملة ، بل ببعضها ، بل بالممكن من بعضها .! أية أسرة شريفة تقبل أن يساكنها رجل عزب ، وأية خادم عفيفة تطمن أن تمدح رجلاً عزباً ؟ هذه هي لعنة الشرف والعفة لهؤلاء الأعراب من الرجال !

قال الراوى : وهنا انتفض «س» و «ا» وحاولا أن يقبضا على هذه اللعنة ويرداها إلى حلق «ع» . ثم سألتني ثلاثهم أن أسقطها من المقال ، بيد أنى رأيت أن خيراً من حذفها أن تكون اللعنة لأعراب الرجال إلا «س» و «ا» و «ع» . . .

مصطفى صادق الرافعي

واستقرت هناك . فسافر اليها وتحققت أمنيته بالمقام الى جانبها
كرة أخرى ، واستطاع بنفوذها أن يحصل على وظيفة في ديوان
مسح الأراضي في تلك الناحية نفسها ، فكانت سعادة مزدوجة ،
وكان الهدوء والسكينة والاستقرار ، وكان ذلك سنة ١٧٣٢
وهنا فقط يكتشف روسو حقيقة مرة غابت عنه طيلة هذه
الأعوام الثلاثة ؛ تلك هي علاقة مدام دي فرانس بخادها وأمينها
كلودانيه ؛ فقد عرف روسو فجأة أن الخادم ينعم بحب سيده ؛
وعرف ذلك من مدام دي فرانس ذاتها ، ففي ذات يوم تارت بين
السيدة وخادها مناقشة عاصفة وجهت اليه خلالها بعض الألفاظ
الجارحة ؛ فهرول كلودانيه خفية الى زجاجة من « اللادونوم »
فاطلع ما فيها ليكي يزهق نفسه ، ثم أوى الى غرفته ينتظر حشرة
الموت ؛ ورأت سيده وخليلته الزجاجة الفارغة فأدركت الأمر ،
وهرولت صارخة الى غرفته ، ونادت روسو واعترفت له بكل
شيء ، ورجت منه العون ؛ فعاونها على إسعافه ، ونجا الخادم
المحبوب . ودهش روسو لقبائه إذ خفيت عليه هذه الحقيقة من
قبل . ولكنه لم يشعر نحر كلودانيه بشيء من الحقد ، برغم أنه
يسلبه معبودة قلبه ، لأنه يحرص على سعادتها وهنائها .

وليث روسو مدى الأعوام التالية الى جانب مدام دي فرانس ،
ولم يفارقها إلا في فترات قليلة ولأسباب طارئة . كانت شامبري
موطنه ومستقره ، وكانت مدام دي فرانس أمه وأسرته وكل شيء
في الوجود بالنسبة اليه . وكانت الحياة عندئذ هادئة منظمة ، وقد
أخذ روسو يشعر بشيء من الثقة بنفسه وبمستقبله ؛ وكان يوزع
وقته بين عمله ، ودرس الموسيقى ، ومامدي فرانس . وكانت ثمة
سعادة أخرى لم يكن يتوقعها روسو ، ترفرف عليه في ذلك المقام
الرغد ، بل كان ثمة حادث لعله أعظم مفاجأة في حياة روسو .
ذلك أن علاقته الباذجة الافلاطونية مع مدام دي فرانس تحولت
فجأة الى علائق حب عملي . ولذلك التحول قصة غريبة رويها
لنا روسو في عدة صفحات ساحرة مؤثرة . فقد كان روسو يعطي
دروساً في الموسيقى لبعض أكابر السيدات في شامبري ، وكانت
علاقته النسوية تزداد بذلك يوماً عن يوم ؛ وكان بين أولئك
السيدات ، سيدة تدعى الكوتتة دي منتون كان روسو يعلم ابنتها
الغناء ؛ وكانت سيدة مضطربة الأهواء تحب اللسائس الترامية ،
وبيتها وبين مدام دي فرانس صلة ومناجات نسوية . فلما اتصلت

بجان جاك وقدرت ذكاهه ومقدرته على الكتابة الساحرة ونظم
الأناشيد والأغاني ، فكرت في استهوائه والانتفاع بمقدرته ،
واستقبلته بمطف وإكرام ، وشمرت مذآم دي فرانس بذلك ،
ففكرت في انقاذ روسو من شركها وشراك غيرها من النسوة
اللأئي يحطن به . وانتمت لذلك أعرب وسيلة يمكن تصورها .
فاختلت بروسو ذات يوم ، وأفهمته أنها لم تر وسيلة لانقاذه من
أخطار الشباب سوى أن تقدم نفسها اليه ، وأن تفتدى بجسمها
كل ما يهدده من الأخطار ، وأنها عملة ثمانية أيام للتفكير والمزم .
ويقول لنا روسو إنه دهش لهذه المفاجأة أيما دهشة ، ولأنه لم يكن
يتوقع قط هذا المصير لملائقته مع المحسنة اليه ؛ بيد أنه يقول لنا
إن ذهنه لم يكن بعيداً عن تصور هذه السعادة ؛ فقد كان يضطرم
جوى نحو النساء ؛ ولم يكن قد لامس إحداهن بعد ؛ وإن مدام
دي فرانس وإن كانت تكبره بنحو عشر سنين ، كانت
ما تزال فتية فتاة وافرة الأنوثة والسحر ، ولم يثره أنها كانت خلية
غيره ، وأنها بذلك توزع متاعها على أكثر من رجل ، فقد كانت
هذه الشركة مؤلفة حقاً ، ولكنها لم تتبدد من عواطفه نحوها .
ويحاول روسو أن يحلل عواطفه نحو مدام دي فرانس صراحة

أخرى . لقد كان يحبها حقاً ، بل كان يهيم بها حباً ؛ ولكن ذلك
الهيام كان أقوى من أن يجعله على الرغبة في صالها . وقد أنفق
هذه الأيام الثمانية في اضطراب ذهني لا يمكن تصوره ، وكانت
كانت قروناً ثمانية ، ولكنه كان يبنى المزيد منها . ثم جاء اليوم
المرع أخيراً ؛ فهرول روسو إليها ، وصرح بالقبول والأذعان ؛
وبر في الحال بوعده . ويصف لنا روسو ذلك اللقاء المدهش في
تلك العبارات القوية المؤثرة : « لقد توج قلبي كل نذوري دون
أن أرغب في المكافأة . بيد أنني حصلت عليها ، وألقيت نفسي
لأول مرة ، بين ذراعي امرأة - وامرأة أعبدتها . فهل كنت
سعيداً ؟ كلا ؛ ولقد تذوقت السرور ، ولكن شعوراً قاهراً من
الحزن كان يسم سحره ؛ وكنت أشعر أنني أرتكب عشرة محرم ؛
ولقد بللت صدرها بدموعي مرتين أو ثلاث مرات ، بينما كنت
أضمرها إلى في شغف وهيام . أما هي فلم تكن حزينة ولا مضطربة ،
ولكنها كانت ناعمة هادئة . ولم تكن تحبها الشهوة ، ولم
تكن ترجو المتاع ، ولهذا لم تشعر بعتمة ، ولم يؤنبها الضمير قط »
وهنا يفيض روسو في تجميل عواطف مدام دي فرانس
وسيوها الترامية ، ويحاول أن يستدر عن أخطائها وزلاتها ؛ فقد

أشرف على الثلاثين من عمره ، ونضجت دراساته ومواهبه وآنس في نفسه طموحاً إلى غزو ميدان الحياة الواسع ، فاتجه ببصره إلى باريس ، فودع « أمه » الوداع الأخير ، وسافر إليها تحذوه مختلف العواطف والآمال .

وكان ذلك ختام قصة روسو ومدام دي فرنس ، فلم يرها بعد ذلك ولم يحاول رؤيتها ، وألقى به القدر في باريس إلى غمار حياة جديدة عاصفة ، ولكنه لم ينس ذكرى المحنة إليه قط ، ولما توفيت بعد ذلك بنحو عشرين عاماً - سنة ١٧٦٤ - اشتد حزنه لفقدائها ، وهو يعرب لنا عن ذلك الحزن في نفثة مؤثرة في « الاعترافات » .
محمد عبد الله عثمان
الحمامي

ماذا يعني ؟

سيدي الأستاذ البليغ صاحب الرسالة

أني قرأت في رسالتكم الواحدة والستين كلمة نددت من الأستاذ كرم ملحم كرم ، وهو يتحدث عن « أدب اليوم » صغيرة في ذاتها ، ولكن فيها طبيعة كطبيعة (الديناميت) لا يمس شيئاً إلا جعله ياباً ، فأكبرتها ، وأعددت فصلاً طويلاً في الرد عليها ، ثم بدالتي فقلت : لعل الأستاذ كرم ، لا يعني هذا الذي يفهم من كلمته ، ولعله إذا نبه إليها نظر فيها ثم رجع عنها ، فكنتي الله المؤمنين القتال ، وعهدنا بالأستاذ أنه ذكي متأن ، وكاتب مفكر ، فطويت فصلي وبشت بهذه الكلمة إليكم راجياً منكم أن تنضروها وتسالوه الجواب عنها :

ماذا يعني الأستاذ كرم بقوله ، وهو يتحدث عن روايات فولتير وروسو ولامارتين وهوغو : « والدين نفسه يقوم على الروايات ، فها هو كتاب التوراة ، وما هو الإنجيل ، وما هو القرآن ؟ - أليس للرواية من هذه الكتب أكبر نصيب ؟ » اه .
هل يعني دين التوراة والإنجيل فقط ، فلا تنازعه ولا يكون لنا أن تنازعه وهو صاحب الدار وأدري بما فيها ، أم يعني دين القرآن ؟ وهل يعني أن القرآن رواية كروايات روسو ولامارتين ؟ وان مافيه من عبرة التاريخ الصحيح ، هو ملهية الرواية الباطلة ؟

هذا ما أرجو أن تنفضوا بسؤال الأستاذ عنه ، وأن يتفضل بإيضاحه .
على الطنطاري
عضو « جمعية الهداية الإسلامية » دمشق

نشأت نشأة حسنة ، ذات فضيلة واستقامة ، وذوق رفيع ، وخلال بدبمة ، ولكنها كانت تصنى إلى العقل والفلسفة دون القلب ؛ وقد عنى معلمها وأول عشاقها ، مسيودي ناقل ، بأن يفرس في ذهنها جميع المبادئ التي تسهل له إغواءها ؛ فعملها أن الاخلاص الزوجي سخف ، وأن الاجتماع الجنسي أمر نافع ، وأن الفضيلة والعفة والحشمة أمور ظاهرية فقط . ففزعها هذه المبادئ وطفنت عليها حتى أصبحت تمتدق دأعماً أنه لا يصفد الانسان بحب امرأته قدر الوصل . وفي تلك الصحف التي يصف لنا فيها روسو ذلك التحول في علاقته مع مدام دي فرنس ، يبلغ روسو ذروة البلاغة والانتان ، ولعلها أبدع قطعة في « الاعترافات »

وهكذا تحولت القصة البنوية الأموية إلى قصة غرامية ، وغدا روسو خليل المرأة التي لبث بضعة أعوام يقدها كأم رؤوم . واستمرت هذه العلاقة ما بقي إلى جانبها ، واستمر الخادم كلود آنيه شريكه في الوصل مدى حين ، ولكنه لم يلبث أن توفي . ثم انتقلت مدام دي فرنس وروسو إلى منزل خلوي في ضيعة « لشارميت » ، وهناك قضى روسو ، في ذلك المقام المنزول أياماً سعيدة في الدرس ، مستأثراً بصحبة « أمه » وحييته . ثم اعتلت صحته ، واشتد به الهزال والضعف ، وفكر في السفر لينتجع العافية ، وأشير عليه أن يسافر إلى مونتبلية حتى يجد من الأطباء من يستطيع معالجته ، ولم تمنع مدام دي فرنس في تنفيذ ذلك الزم ، نسافر إلى مونتبلية ، ووقعت له أثناء رحلته بعض حوادث غرامية بثت في ذهنه اضطراباً وجوى . وبعد أشهر عاد إلى « أمه » وكانت تلك العاطفة المضطربة التي لبثت مدى أعوام تدفسه إلى جانب مدام دي فرنس قد خبت نوعاً ، واستحالت إلى نوع من الصداقة الهادئة ، والظاهر أيضاً أن مدام دي فرنس كانت تبحث عن صداقة جديدة وغذاء جديد لمواطنها الهائجة ، فلما عاد روسو ألقى إلى جانبها في المنزل رجلاً آخر يدعى فنترزيد ، ولم يلبث روسو أن أدرك من تصرفاته ولهجته أنه غداً صاحباً لمدام دي فرنس ، وأنه قد حل مكانه ، فحزن روسو لذلك ولم يعلق البقاء حينها هدمت سعادته ، فصار إلى ليون ، ولم تبد « أمه » كبير أسف لسفوره . وبعد أن أقام بها حيناً عاد إلى مدام دي فرنس كرهة أخرى ، وأقام بالمنزل حيناً في عزلة عنها لا يكاد يراها إلا وقت الطعام ، وكانت آخر زيارته لها . وكان يومئذ قد